

الدرس السابع عشر تاريخ التشريع الإسلامي

الإمام الشافعي

محمد بن إدريس الشافعي ولد عام 150 هـ وتوفي عام 204 هـ بالاتفاق وهو بهذا عاش أقل من الأئمة الثلاثة.

واتفق الباحثين في الشريعة الإسلامية على أن فقه الإمام الشافعي يمثل الفقه الإسلامي في قمة نضجه وازدهاره.

لأن الإمام الشافعي دون قواعد الفقه الكلية وأصل أصوله بعد أن كان الفقه مسائل جزئية غير مرتبطة ببعضها البعض وغير قائمة على قواعد كلية وأصول ثابتة عامة (أي نظريات) وقد وضع الإمام الشافعي أيضاً قواعد للرأي والاجتهاد حتى لا يخرج الرأي والاجتهاد عن سنن الكتاب والسنة وضبط قواعد للقياس وأقام مبادئ تفرق بين الحق والباطل فيما يتعلق بالأمر الاجتهادية التي لا نص فيها.

حياته: ولد الإمام الشافعي في غزة (جمهور المؤرخين) وقيل في اليمن أو عسقلان والده قريشي يلتقي نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف الجد أما أمه فمن قبيلة أخرى عربية الأصل، أسرته فقيرة للغاية ربي يتيماً فقد توفي والده وسرعان ما ذهبت به والدته إلى مكة حتى لا يضيع نسبه ولكي يعيش حيث تتجمع قبيلة قريش فيعيش في أحضانها ثم إنه حفظ كتاب الله في صغره والله أعلم بأي سن كان ذلك ثم أقبل على الحديث يحفظه وكان يكتبه على الخزف والألواح والجلود حسب ما يتوفر له.

وصح أنه كان يذهب إلى الدواوين في مكة فيستوهب منهم ما يسمى بالظهور دمع ظهر: الورقة التي كتب على ظهرها **وبقي** الآخر.

روى بعض المؤرخين أنه يجلس ويسمع الحديث من الإمام مالك وكان يكتب ما يسمعه على يده (يتخذها وسيلة لنقشها في محه) .

ثم أرسلته أمه إلى إحدى القبائل العربية (قبيلة هذيل) عربية أصيلة ليعيش بين ظهرانيهم وبقي معهم عشرة سنوات والهدف أن يتشرب لسانه اللهجة العربية الفصحى وأن يتحصن لسانه ضد العجمة واللحن الذي بدء ينتشر عند بعض الألسنة وبهذا حفظ كثيراً من شعر الهذليين وكلامهم ثم انتقل في شبابه لدراسة الفقه الإسلامي يدرس كتاب الله والسنة على يد كثير من الأساتذة في مكة والمدينة والعراق ومصر منهم الأوائل (مسلم بن خالد الرازي) وهو أول من أعطاه الإجازة لكي يفتي ولكنه رفض ذلك ووجد أنه في بداية سلم العلم، ثم إنه سمع بالإمام مالك بالمدينة ورحل إليه يطلب العلم ولكنه رفض أن يذهب إليه قبل أن يحفظ شيئاً من علومه فأقبل على الموطأ فحفظه غيباً وطلب من والي مكة توصية للإمام مالك فلقد رجلاً عظيماً تهابه الملوك والأمراء وكان الإمام الشافعي قد رأى نفسه دونه في أن يكون تلميذاً له ثم إنه ذهب إلى والي المدينة حتى يرسله إليه، واستعظم والي المدينة ذلك ثم ذهباً معاً إليه، وعلمنا أن الإمام مالك ذا فراسة عظيمة نظر إليه وهو يافع وقال له الكلام التالي: نما اسمك، قال: محمد، قال: يا محمد اتقي الله واجتنب المعاصي فإنه يكون لك شأن إن الله قد جعل على قلبك نوراً فلا تظفئه بالمعصية.

لازم الإمام الشافعي الإمام مالك إلى وفاته عام 179 هـ وإلى هذه الفترة كان يعاني من الفقر ولا يبالي من أجل العلم ولما توفي كأنه أحس بفراغ كبير فالتفت يبحث عن عمل وقد وصل إلى قمة شبابه.

وبحث له بعض القرشيين عن عمل في اليمن بواسطة والي اليمن، وقد بحث له عن عمل في نجران وأعطى له وكان بمثابة المحافظ وعمل مدة لم تعرف ثم إن والي المدينة تحفظ عليه فوشى إلى هارون الرشيد\ بشأنه وعشرة معه وكانت

الخلافة العباسية آنذاك تحسب حساب للشيعة وخاصة للعلويين أي أسرة وذرية سيدنا علي رضي الله عنه ذلك أن الخلافة العباسية قامت على سواعد الشيعة ثم تنكروا لهم لذلك كان الخلفاء العباسيين يخشون أن ينقلبوا ضدهم.

المهم أن التهمة كانت التشيع فأرسل له أن ابعتهم جميعاً مقيدين ونفذ الأمر وكان بينهم الإمام الشافعي ولكن الله أنقذ الشافعي من هذه المحنة لسببين:

1- قوة حجة لسانه الذي كان يتمتع به ومنطقه الباهر وقد

أعجب هارون الرشيد.

2- أن محمد بن الحسن تلميذ الإمام أبو حنيفة كان آنذاك في

مجلس هارون الرشيد وكان قد التقى بالإمام الشافعي وعرفه بين أن للعلماء نسب أقوى من نسب الرحم فشهد محمد بن الحسن للشافعي شهادة عظيمة فقال إن لهذا الشاب قدر كبير من العلم وليس بينه وبين التهمة صلة.

كأن هذه المحنة من الله عز وجل لإعادة الشافعي من عمل الدنيا إلى عمل الآخرة وهكذا عاد الإمام ليتمم ما ترك من دراسته عام 184 وذلك بأن تعرف على الإمام محمد وتلمذ على يده ويقول (أخذت من محمد بن الحسن وقع بغير من العلم أخذته سماعاً) ولازمه وأخذ منه وناظره في كثير من المسائل التي اجتهد فيها هو وأبو حنيفة على طريقة أهل الرأي وفي كتابه الأم الكثير من هذه المناظرات اللطيفة وكان الإمام محمد يقدر الشافعي تقديراً عظيماً ولا يؤثر على مجلسه معه أي مجلس فقد صادف أن الشافعي كان متجه لإلى بيت الإمام محمد وكان هو متجه إلى هارون الرشيد فلما علم أنه على موعد مع الخليفة قال: لنأخر موعدنا فقال له لا وأرسل للخليفة يعتذر منه أثر مجلس العلم على مجلس الخليفة، أقام سنتين ثم عاد إلى مكة 186 وأخذ يدرس في الحرم المكي وهي فترة ازدهار الشافعي والحضبة فقد بدأ يعمل كل تفكيره وذهنه في تدوين فلسفة للفقهاء وفي وضع موازين للاحتجاج حيث يجمع العقول المختلفة على هذه الموازين.

بدأ يتجه إلى بث قواعد الاجتهاد وتدوين أصول الاستنباط للأحكام من القرآن والسنة وصحيح أحما مليئين بالأحكام ولكن كيف نفهم القرآن والسنة وما هي قواعد الفهم والدلالة العربية التي على أساسها نستل الأحكام. فوضع وخطط لهذا العلم الجديد (أصول الاستنباط) أو علم أصول الفقه وبقي في مكة تسع سنوات على هذا العلم ثم عاد ثانية إلى بغداد 195 وهو يحمل هذه القواعد إلى جماعة أهل الرأي وهناك أخرج كتابه العظيم (الرسالة). ويمكن أن نقول إن هذه مقدمة ضخمة لكتابه الأم مثل مقدمة ابن خلدون لكتابه تاريخ الأمم والملوك الموسوعة التاريخية الضخمة، ولأهمية هذه المقدمة وعظم شأنها طبعت طبع مستقل وأفردت بهذا الاسم وهذا ما حصل للرسالة مقدمة كتاب الأم (7 أجزاء).

وملخص الرسالة هو: أن أي علم يدرسه العالم الشرعي يجب أن يدور على فلك النص من الكتاب والسنة فلا يجوز أن نأتي بأحكام منقطعة النسب عن القرآن والسنة.

وأوضح فيها الإمام حجية القرآن والسنة لظهور من لا يلقي بالألحجية السنة (الزنادقة) لهذا سمي نصير السنة النبوية.

ثم عقد باباً سماه الدلالات وكيف تدل النصوص القرآنية أو السننية على المعنى وكيف تدل النصوص القرآنية أو السننية على معناه بعبارة وفحواه وعن خطابه وبالمفهوم الموافق والمخالف وكيف يدل بعليته وكيف نستخرج قواعد القياس على النص في كتاب الله تعالى وإذا ورد إلينا نص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق الأحاد هل هو حجة أم لا وأوضح كيفية البيان وكيف أن القرآن بيان بعضه لبعض وأن النص قد يكون عاماً وخاصاً مطلقاً ومقيداً والعام يأتي نص خاص والمطلق يأتي نص مقيد يفسره وهل يمكن للسنة تقيد النص القرآني يفسره العام، وهل يمكن للسنة تقيد النص القرآني المطلق وهل

يمكن العكس فهي مفاتيح لكي نستخدم أحكام الشرع وإذا لم نجد نص فكيف نجتهد وكيف نسير على طريق يتفق مع مبادئ كتاب الله وسنة رسوله ولفقر المجتمع الإسلامي في هذا وحاجته لمثل هذا الكتاب أقبل علماء العراق جميعاً على هذا الكتاب.

والذي مكن الإمام الشافعي من هذا هو معيشته مع القبائل العربية التي جعلته يعرف كيف يفهم الإنسان العربي الجملة ويأخذ المعنى إثر المعنى من جملة والطبيعة والسليقة العربية دون أن يتكلف إلى جانب مزايا خاصة أعطاه الله سبحانه وتعالى إياها، ثم إنه لم يدم طويلاً في بغداد فاتجه إلى مصر وعبر عن هذا في بعض شعره فقد كان شاعراً من أبرز شعراء العرب قال: إنه لا يدري لماذا يريد أن يذهب إلى مصر؟! هل لأنه سيلقى حتفه هناك أم لأن جمال العلم والدرس أوسع والحقيقة أنه شاهد هذا وذاك فقد توفي في القاهرة.

ومن ألمع أساتذة الإمام الشافعي هم الأئمة مالك ومسلم ومحمد ولكن موقفه بالنسبة للإمام مالك بالذات فقد كان إلى شطر حياته يعد من تلامذته وكأنه يسير على مذهبه، وكان إذا وضع بعض المسائل التي يخالف فيها رأي الإمام مالك لم يمل إلى مناقشته حتى لا يوضع في موقف حرج مع أستاذه أو موقف الرفض لقوله أو الراد عليه إلى أن بلغه أن في أطراف المغرب أناساً وصل بهم التقديس الأعمى للإمام مالك لو أن أحدهم قال لهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كذا قالوا: ولكن مالك يقول كذا، فيتركوا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذوا برأي مالك علماً بأنهم علماء وليسوا مقلدين وإلا لجاز لهم ذلك وقالوا نحن لا نعلم معنى هذا الكلام ولكن المشكلة أنهم علماء وفضاحل فعظم هذا الأمر في ذهن الشافعي وصاغ كتاب أسماه (خلاص مالك) أي خلافاً مع الإمام مالك رحمه الله وقال أنه بشر يصيب ويخطئ وعندئذ بدأ

يناقش كلام الإمام مالك ليوضح أنه إنسان يصدق عليه الصواب والخطأ ولا ينبغي لنا أن نرفع الإنسان إلى مرتبة العصمة.

ونريد إيضاح الفرق بين احترام الأئمة وهو أمر وواجب ومطلوب وبين أن نذهب في التعصب لهم مذهب يعمينا عن الحق.

في كثير من الأحيان ذهب العلماء الكبار ضحية لتلاميذهم فقد يكون الإمام عظيم جداً ولكن يكون له تلاميذ يتشجعون في تعصبهم فيضيفون ويختلفون عليه وهذا يضره كثيراً.

مثلاً الشيخ عبد القادر الجيلاني إمام عظيم ورباني كبير ولكن له تلاميذ اختلفوا عليه الروايات فيسمعها الناس فينفرون من الإمام والخطأ والصواب مطبق على الكل إلا الأنبياء.

نقل الربيع عن الشافعي: ما من أحد إلا تعزب عنه سنة أو حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فمهما رأيتموني أبطلت من أصل أو قلت من قول وكان خلاف قوله عليه الصلاة والسلام فالصحيح ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قولي أيضاً.

هذا الكلام قاله الشافعي لنفسه قبل أن يقوله للإمام مالك ولكن لا يسمع هذا الكلام أحد العامة ثم يذهب فيشاهد حديث صحيح لم يعمل به الشافعي فيقول قد صح الحديث ولن آخذ بكلام الشافعي.

فمثلاً قول رسول الله عليه الصلاة والسلام [من أكل لحم جزول فليتوضأ] وقد صح (أحاديث واقعه حال) لا نأخذ منها أحكام.